

## نقاط مضيئة في تاريخ التنمية :

### (ج ٢) : التنمية و الأعمار

#### دراسة : عبد المجيد راشد

يقوم التصور الإسلامى للتنمية على أساس أن الله سبحانه و تعالى قد خلق الكون و استخلف الإنسان فى الأرض ليقوم بعمارته ، وفق منهج الله و شريعته ، و قد خلق الله سبحانه و تعالى الإنسان متميزا عن سائر المخلوقات ليكون قادرا على أداء هذه المهمة و هيا له بفضله و كرمه كل ما يمكنه من أدائها ، و أنه على ضوء قيام الإنسان بهذه المهمة يتقرر مصيره و يتحدد مستقبله فى الدنيا و الآخرة .

و قد سلك الفكر التنموى الإسلامى خلال مسيرته الأولى جملة مسالك ، و انتهج عدة طرق ، قدم من خلالها نفسه ، و أخذ بيد المجتمع الإسلامى فى طريق التقدم و الإزدهار ، لكن هذا الفكر قد تعرض إلى انحسارات و تراجع ، خلال فترات من التاريخ ، كان سببها الجوهرى قفل باب الإجتهد الذى أفتى به علماء القرن الخامس الهجرى حيث ظل الفكر التنموى الإسلامى يدور حول نفسه بين جنبات الكتب ، و نلتقط من هذا المسار نماذج للفكر التنموى الإسلامى فى محطات مختلفة من تاريخه .

فعلى سبيل المثال ، كانت قضية عمارة البلاد من أهم القضايا التى تناولها الإمام على كرم الله وجهه فى كتاب " نهج البلاغة " . فقد جاء فى مقدمة العهد الذى كتبه امير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لمالك بن الحارث الأشتر النخعى حين و لاه مصر : " هذا ما امر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر فى عهده حين و لاه مصر : جباية خراجها ، و جهاد عدوها ، و استصلاح أهلها ، و عمارة بلادها " <sup>١</sup> . وفى هذا العهد تلخيص لوظائف الوالى الأربعة ، و التى منها " عمارة البلاد " . و فى كتابه إلى محمد بن أبى بكر الذى و لاه مصر أيضا ، يصف له حال المجتمع الذى ينبغى أن تكون عليه فى مصر و فى سائر بلاد الإسلام ، حيث يتأمن لأفراد هذه المجتمعات ملذات الدنيا المباحة ما كفاهم

١ - د. إبراهيم العسل : التنمية فى الإسلام : مفاهيم ، مناهج تطبيقات ، المؤسسة الجامعية للدراسات و

النشر و التوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ص ٦٣

٢ - الشريف محمد الرضى : نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، شرح الشيخ محمد عبده ، و تحقيق

عبد العزيز سيد الأهل ، مكتبة الأندلس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤ ، ص ١٨

و اغناهم ، و يتمتعون بأعلى مستويات السكن و الأكل و اللباس، ووسائل المواصلات ، و سائر أنواع الطيبات . و يرى الإمام على كرم الله وجهه أن العمارة ليست مجرد زيادة الإنتاج أو رفع الدخل القومي ، أو مضاعفة متوسط دخل الفرد و إنما الى جانب ذلك تتطلب العمارة العدالة فى توزيع الدخل ، و رفع مستوى الإستهلاك لجميع أفراد المجتمع ، سواء من لديه القدرة منهم على تحقيق ذلك لنفسه ، أم من يعجز عن ذلك ، إذ على الدولة أن تقوم بتحقيق هذا المستوى الصنف العاجز من الناس . فهو يرى أن النقص فى مستوى الإستهلاك و إشباع الحاجات الأساسية الذى يصاب به فقير ، هو الوجه الآخر لشخص متخم استخدم من متاع الدنيا فوق احتياجاته ، و انه ما جاع فقير إلا بما متع غنى ، و هو علامة على سوء توزيع الدولة لثمار التنمية على أفراد المجتمع ، و غفلتها عن تطبيق العدالة الإجتماعية بما يتناسب مع العمل و البذل من ناحية ، و مع الحاجة من ناحية أخرى طبقاً لمنهج الإسلام فى التوزيع حيث يقول :

" و اعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، و منها كتاب العامة و الخاصة ، و منها قضاة العدل ، و منها عمال الإنصاف و الرفق ، و منها أهل الجزية و الخراج من أهل الذمة و مسلمة الناس ، و منها التجار و أهل الصناعات ، و منها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة و المسكنة ، و كلّ قد سمي الله سهمه و وضع على حده فريضة .... و فى الله لكل سعة ، و لكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه " .<sup>٣</sup>

إن التمعن فى فى كتاب الإمام على لواليه على مصر يتلمس بذور السياسة التنموية التى وضعها ، و التى لم يستفرض فى شرحها ، بل إكتفى برؤس الموضوعات و إبراز أمهات الأفكار . فعندما يقول لواليه " و ليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى إستجلاب الخراج " ، فإنه يعقد مفاضلة بين وظيفتين من وظائف الدولة ، يفضل منها العمارة و يوليها أهمية تفوق الجباية ، دون إهمال الأخرى ، و بذلك تتحقق الوظيفتان معا فى الأمد الطويل ، إذ أن الخراج لا يدرك إلا بتحقيق العمارة و لو حصل العكس لن تدرك جباية و لن تتحقق تنمية " فمن طلب الخراج بدون عمارة أخرج البلاد و أهلها العباد " .<sup>٤</sup>

<sup>٣</sup> - الشريف محمد الرضى : نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، شرح الشيخ محمد عبده ، و تحقيق

عبد العزيز سيد الأهل ، مكتبة الأندلس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤ ، ص ٢٧

<sup>٤</sup> - د. يوسف إبراهيم يوسف : استراتيجية و تكتيك التنمية الاقتصادية فى الإسلام ، الإتحاد الدولى للبنوك

الإسلامية ، بدون مكان للطبع ، ٤٠١ هـ ، ص ١٧٩

و فى نفس السياق فقد تفرد الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ° ،  
بتقديم أول دراسة إقتصادية مستقلة عن الدراسات الفقهية فى كتابه "   
الخراج " ، و قد إعتبرها الدكتور محمد شوقى الفنجري " أولى الدراسات  
الإقتصادية المستقلة فى العالم " ٦

ف فوق أن كتاب " الخراج " يسبق مؤلفات المالية العامة و الضرائب فى  
القرن العشرين كما يقول الدكتور صلاح نامق ٧ ، فإن الدكتور يوسف  
إبراهيم يوسف إعتبره " خطة للإصلاح المالى و الاقتصادى لتحقيق  
العمارة و بيان الأسس التى تقوم عليها و إجراءات تحقيقها " ٨

و يحدد ابا يوسف مهمة الدولة أو الإمام بالعمل على تشغيل كل قطاعات  
المجتمع حتى تعمر البلاد و تتحقق التنمية و إرتقى بفكره الإنمائى درجة  
قفز بها الى مستوى علماء الإجتماع و ورواد الإقتصاد ، حيث وضع أسلوبا  
مبتكرا لخطط التنمية القومية و مراحلها المتعددة و التى تبدأ بملاحظة  
الواقع ، ثم القيام بالدراسة الميدانية بعد تأمين الأخصائيين و الخبراء ، ثم  
إجراء الإستقصاءات و الإستشارات ، و أخيرا عرض النتائج و التوصيات ،  
ووضع سلم الأولويات ، و تقدير الأكلاف و الكشف عن جوانب المشاكل  
القائمة و الحلول الملائمة لها . حيث يقول :

" و رأيت أن تأمر عمال الخراج ، إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم ، فذكروا  
لهم ان فى بلادهم أنهارا عادية قديمة و أرضين كثيرة غامرة ، و أنهم إن  
استخرجوا لهم تلك الأنهار و احتفروها و أجرى الماء فيها عمرت هذه  
الأرضون الغامرة و زاد فى خراجهم ، كتب ذلك إليك فأمرت رجلا من  
أهل الخير و الصلاح يوثق بدينه و أمانته من أهل ذلك البلد ، و يشاور فيه  
غير أهل ذلك البلد ممن له بصيرة و معرفة و لا يجر الى نفسه منفعة و لا  
يدفع عنها به مضرة ، فإذا إجتمعوا على أن فى ذلك صلاحا و زيادة فى  
الخراج ، أمرت بحفر تلك الأنهار ، و جعلت النفقة من بيت المال ، و لا

° - هو الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ، و كان قاضيا للقضاة فى العصر الذهبى للدولة العباسية ، و  
من أعلام أئمة المذهب الحنفى ، يشارك الإمام أبو حنيفة النعمان فى المشيخة ، فيقال " الشيخان " و  
يشارك محمد بن الحسن فى صحبة الإمام أبو حنيفة فيقال " الصحابين " ، ولد عام ١١٣ هـ و توفى عام  
١٨٢ هـ

٦ - د. محمد شوقى الفنجري ، المذهب الإقتصادى فى الإسلام ، ص ١٧

٧ - د. صلاح نامق : مقدمة كتاب " المبادئ الإقتصادية فى الإسلام للدكتور على عبد الرسول ، دار الفكر  
، بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٨

٨ - د. يوسف إبراهيم يوسف : استراتيجية و تكتيك التنمية الإقتصادية فى الإسلام ، م.س.ذ ، ص ١٨٧

تحمل النفقة على اهل البلد ، فإنهم إن يعمرؤا خيرا من أن يخرّبوا ، و أن  
يفرؤا خيرا من أن يذهب مالهم<sup>٩</sup>

---

<sup>٩</sup> - أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم : كتاب الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ١٠٩ / ١١٠